عبرة تربويّة من سورة النّازعات

قال الشيخ محمد الجيلاني بن أحمد حمزة رحمه الله: "تُرشدك هذه السّورة إلى: أنّ النّاس من جهة الطّاعة والخوف من الله رجلان: رجلٌ يستجيب للطّاعة، ويُداوم عليها، ويخاف الله في كلِّ حين، وهذا لا شكّ من أهل الجنّة، تصدق عليه الآية التي مرّت بك في قوله: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ) (فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ). **ورجلٌ يستجيب للطّاعة، ولكنّه يُقْدِمُ على المعصية بجرأة، كأنّه لا يعتقد أنّ هناك رقيبا مطّلعا على عباده، وهذا لا شكّ يستحقُّ عذاب الهُونِ. قيل لبعض الزهّاد: ما تقول في صلاة اللّيل؟ فقال: "خَفِ الله بالنّهار ونم باللّيل".**

وقال الشّاعر:

أَطَاعَ اللَّهَ قَوْمٌ فَاسْتَرَاحُوا وَلَمْ يَتَجَرَّعُوا غُصَصَ المَعَاصِي

فرأس الحكمة مخافة الله. ونحن إذا تدبّرنا القرآن الكريم، وجدنا أنّ كثيرا من آياته فيها حضٌّ على الخوف من الله في السرِّ والعلن، فالمسلم الكامل الذي يضع مخافة الله نُصب عينيْه، تراه لا يرتكبُ مُحرّما قطُّ، ولا تُسوِّلُ له نفسهُ اغتيال حقٍّ لغيره، بل يُعمِلُ جُهدَهُ لما فيه صلاحُهُ وخَيْرُهُ." [السعادة الأبديّة 28-29]

الخوف مقام عظيم من مقامات السالكين

الخوف من الله تبارك وتعالى مقام من مقامات السّالكين، وحال من أحوال الطّالبين، فهو شرط الإيمان: قال عزّ وجلّ: (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) [آل عمران175]، وهو علامة على معرفة الله تبارك وتعالى، فأعرف النّاس بالله أخوفهم منه: قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) [فاطر28].

والخوف يفهمه السّالكون على أنّه رحمة من الله بعباده، إذْ هو كما يقول ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين: "سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما الرُّتب".

ولا ينفصل عند أهل الفهم والذوق جناح الخوف عن جناح الرّجاء، فهما جنحان لا يطير السالك إلى الله إلاّ بهما. قال ابن قدامة: "اعلم أنّ الرّجاء والخوف جنحان، بهما يطير المقرّبون إلى كلِّ مقام محمود، ومطيّتان بهما يقطع من طريق الآخرة كلَّ عقبة كؤود". [مختصر منهاج القاصدين 317]

في تعريف الخوف

قال ابن قدامة في مختصره: "الخوف عبارة عن تألّم القلب واحتراقه بسبب توقّع مكروه في الاستقبال".

وعلامة الخوف أن يظهر أثره على الجارحة، فيُورث صاحبَهُ التزاما وتمسّكا بالطاعة وانتهاء عن المعصية، قال ابن قدامة: "وأمّا ظهور أثره على الجوارح فبكفِّها عن المعاصي، وإلزامها الطّاعات، تلافيا لما فَرَطَ واستعدادا للمستقبل".

في مقامات الخائفين

الخائفون على ضربيْن:

- **خوف العامّة:** وهو الخوف من عذاب الله، ويحصل هذا الخوف بالإيمان بالجنّة والنّار، وكونهما جزاءيْن، على الطّاعة والمعصية. ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان أو قوّة الغفلة. وزوال الغفلة في ثلاثة أمور: بالتذكّر، والتفكّر في عذاب الآخرة، وبالنّظر إلى الخائفين ومجالستهم وسماع أخبارهم.
- **خوف الخاصّة:** وهو خوف العارفين بالله، فخوفهم من الله نابع عن معرفته تبارك وتعالى، إذْ معرفته سبحانه ومعرفة صفاته تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البُعد والحجاب.

قال ذو النّون المصري رحمه الله: "خوف النّار عند خوف الفراق، كقطرة في بحر، ولعامّة النّاس حظٌّ من هذا الخوف، ولكن بمجرّد التّقليد، فهو يُضاهي خوف الصبيِّ من الحيّة، تقليدا لأبيه، فلذلك يضعف، فإنّ العقائد التّقليديّة ضعيفة في الغالب، إلاّ إذا قويت بمشاهدة أسبابها المُوَلِّدَةِ لها على الدّوام، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطّاعات، واجتناب المعاصي، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله تعالى خافه بالضرورة."

في أنواع الخوف

- الخوف الواجب:

وهو الخوف الباعث على فعل الواجبات وترك المحرّمات.

- الخوف المستحبّ أو المندوب:

وهو الخوف الزائد عن القدر الواجب والذي يدفع العبد لفعل المستحبّات والابتعاد عن المكروهات.

- الخوف القاصر :

وهو الخوف الذي لا يُورث عملا، يتأثّر به صاحبه في حينه ولكن لا يقوده خوفه ذاك إلى فعل الواجب وترك المحرّم.

- الخوف المحرّم والمذموم:

وهو الخوف الزّائد عن الحدّ، وهو الذي يُقعد عن العمل.

وهو خوف مرضيٌّ لا يصحبه رجاء، ولذلك يجب الاعتدال في الخوف فلا إفراط ولا تفريط.

قال أحد السّلف: "لو نوديَ: لِيَدْخُل الجنّة كلُّ النّاس إلاّ رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرّجل، ولو نوديَ: لِيَدْخُل النّار كلُّ النّاس إلاّ رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرّجل."

في الأسباب الجالبة للخوف من الله

- تذكّر جلال الله وعظمته.
- تدبّر كلام الله تعالى.
- تدبّر كلام النبيِّ ﷺ.
- فعل الواجبات وترك المعاصي.
- الخشية من عدم قبول العمل.
- تذكّر الذّنوب السابقة.
- التفكّر في المصير.
- استحضار الموت.
- سماع أخبار الزّاهدين وأحوال الخائفين.

في ثمرات الخوف

- **ثمرات عاجلة:**

- دفع العبد إلى الإخلاص:

قال تعالى: (وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُوراً) (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً) [الإنسان8-10]

- دفع العبد إلى القيام بالأعمال الصالحة:

قال تعالى: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ) [النور36]

- تكدير السيّئات وعدم التلذّذ بها:

قال ابن قدامة في مختصره: "ومن ثمرات الخوف أنّه يقمع الشهوات ويُكدّر اللذّات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة مكدّرة."

- **حصول ثناء الله تعالى:**

قال تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ) [الأنبياء89]

وهذا ثناء من الله تعالى على أنبيائه لخوفهم منه سبحانه.

- **التمكين في الأرض:**

قال تعالى: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) [إبراهيم17]

- **النّجاة من كلّ سوء:**

قال النبيّ ﷺ: "ثلاثٌ مُنجيات: خشية الله تعالى في السرِّ والعلانية، والعدل في الرِّضا والغضب، والقصد في العدل والفقر." [رواه البيهقي في شعب الإيمان]

- **ثمرات آجلة:**

- **تحصيل رضا الله تعالى والفوز بالنّعيم المقيم:**

قال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ) (جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ) [البيّنة7-8]

في حال السلف مع الخوف وجمال عباراتهم في توصيفه

قال الحسن البصري: "صحبت أقواما كانوا لحسناتهم أن تُردَّ عليهم أخوف منكم من سيّئاتكم أن تُعذّبوا بها."

قال بعض السّلف: "قلت لراهب، أوصني، فقال: إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السّباع والهوام، فهو خائف حَذِرٌ يخاف أن يغفل فيفترسه، أو يسهو فينهشنه، فهو مذعور فافعل، قلت: زدني، فقال: الظمآن يجزيه من الماء أيسره."

قال ابن الجوزي رحمه الله: "من علم عظمة الإله زاد وجله، ومن خاف نقَّمَ ربّه حَسُنَ عمله، فالخوف يستخرج داء البطالة ويشفيه، وهو نِعْمَ المؤدّب للمؤمن ويكفيه."

خَفِ الله وارجــوه لـكـلِّ عظيمةٍ   ولا تُطِعِ النَّفسَ اللّجُوجَ فتندمــا
وكُنْ بين هاتيْنِ من الخوف والرّجا   وأَبْشِرْ بعفو الله إن كنت مُسلما

//

عبرة تربويّة من حديث نبويٍّ شريف

قال الشيخ محمد الجيلاني بن أحمد حمزة الزيتوني التونسي رحمه الله:

خاتمة في سَعَةِ رحمة الله

"قال رسول الله ﷺ: "لمّا خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إنّ رحمتي تغلب غضبي." [رواه الشيخان]

يُرشدنا هذا الحديث إلى: أنّ المؤمن لا ييْأس من رحمة الله، ولا يقنط من رضى الخالق، فبابه مفتوح لكلِّ لاجئٍ، ورحمته وسعت كلَّ شيءٍ، قال تعالى: (قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) [الزمر50].

فهذه الآية تدُلُّ على: أنّه لا ينبغي للمؤمن اليأس من روح الله، والقنوطُ من رحمة الله، بل ينبغي له تحسين الظنِّ به." [كتاب السعادة الأبديّة ص173]

الرّجاء مقام عظيم من مقامات السالكين

نحن أمام مقام عظيم من مقامات السّالكين، ألا وهو مقام الرّجاء، والرّجاء رديف مقام الخوف وقرينه الذي لا ينفصل عنه، إذْ الخوف والرّجاء لا يتعارضان، بل لابدّ أن يسيرا معا، فهما جناحَا المؤمن يسيرُ بهما إلى ربّه عزّ وجلّ.

والرّجاء وقد قُرن بالخوف شعار المؤمنين ودِثار المسارعين إلى الطّاعات والخيرات:

قال عزّ وجلّ: (إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ) [الأنبياء89].

قال الإمام الرّازي رحمه الله: "والمعنى أنّهم ضمّوا إلى فعل الطّاعات والمسارعة فيها أمرين: أحدهما الفزع إلى الله تعالى لمكان الرّغبة في ثوابه والرّهبة من عقابه، والثّاني الخشوع، وهو المخافة الثّابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفا من الإثم." [تفسير مفاتيح الغيب]

في تعريف الخوف

الرّجاء من فعل رجى يرجو بمعنى الأمل.

والرّجاء عموما الأمل فيما يمكن حصوله، وضدُّه التمنّي وهو التعلّق بما لا يمكن حصوله ويَعْسُرُ نيله.

والرّجاء في اصطلاح العارفين هو تعليق القلب بمحبوب يحصل حالا، وقيل هو ارتياح لانتظار محبوب متوقَّعٍ ولابدّ أن يكون له سبب.

قال ابن القيّم رحمه الله: "الرّجاء هو امتداد القلب وميله إلى المحبوب"، وقال أيضا: "الرّجاء حادٍ يحدو إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدّار الآخرة، ويُطيّب لها السير".

لابدّ للرّجاء من سبب

وسببه العمل والاستقامة على فعل الأوامر والانتهاء عن الزواجر.

قال ابن قدامة رحمه الله في مختصره: "هو –أي الرّجاء– انتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المتوقَّع لابدّ له من سبب حاصل، فإن لم يكن له السبب المعلومُ الوجود ولا معلوم الانتفاء سُمِّيَ تمنّيا، لأنّه انتظار من غير سبب."

فالرّجاء إذا لم يتعلّق به سبب كان تمنّيا يقود صاحبه إلى الغرور.

قال الحسن البصري رحمه الله: "إنّ أقواما ألهتهم الأماني حتّى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة، ويقول أحدهم: إنّي أُحسن الظنّ بربِّي، وكذب، ولو أحسن الظنّ لأحسن العمل."

وعلى هذا الأساس جُعل الرّجاء تبعا للعمل في قول الله تبارك وتعالى:

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [البقرة 216].

قال الإمام أبو السّعود رحمه الله في تفسيره الشهير إرشاد العقل السليم: "أثبت لهم الرّجاء دون الفوز بالمرجُوّ، للإيذان بأنّهم عالمون بأنّ العمل غيرُ موجب للأجر، وإنّما هو على طريق التفضّل منه سبحانه."

الرّجاء دافع للعمل

قال ابن قدامة رحمه الله: "وحال الرّجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطّاعات كيفما تقلّبت الأحوال، ومن آثاره التلذّذ بدوام الإقبال على الله عزّ وجلّ، والتنعّم بمناجاته، والتلطّف بالتملّق له، فإنّ هذه الأحوال لابدّ أن تظهر على كلّ من يرجو مَلِكا من الملوك، أو شخصا من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حقِّ الله سبحانه وتعالى؟

فمتى لم تظهر استُدِلَّ به على حرمان مقام الرّجاء، فمن رجا أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات، فهو مغرور."

فلا يكون الرّجاء رجاءً حتّى تظهر على صاحبه خمس علامات:

1. المجاهدة.
2. المواظبة على الطّاعة.
3. التلذّذ بدوام الإقبال على الله تعالى.

4. التنعّم بالمناجاة.
5. التملّق إلى الله عزّ وجلّ.

⬅ فمن رجا ربّه تمسّك بالمجاهدة وواظب فتلذّذ وتنعّم وزاد في التملّق.

الرّجاء دواءٌ

الرّجاء دواءٌ لنوعين من النّاس:

- رجل غلب عليه اليأس حتّى قنط من رحمة ربّه الواسعة.

⬅ والقنوط داء عضال إذا فتك بقلب العبد أهلكه وأقعده عن كلّ حركة وعمل، قال الإمام المناوي رحمه الله: "القنوط تضييقٌ لمجاري الرّحمة والإفضال، ومن ثمّ كان من الكبائر القلبيّة، فحُسن الظنّ وعظم الرّجاء أحسن ما تَزَوَّدَهُ المؤمن لقدومه على ربّه".

- رجل غلب عليه الخوف حتّى أضرّ بنفسه.

⬅ فالرّجاء هنا جُرعةٌ معدِّلة حتّى لا يكون الخوف مَرَضِيًّا يقودُ إلى ما لا يُحمد عقباه.

في أنواع الرّجاء

الرّجاء على ضربيْن:

- رجاء صادق محمود:
  - رجاء ثواب الله وهو يقود إلى المسارعة إلى الطّاعات.
  - رجاءٌ بعد ذنب عقبته توبةٌ نصوحٌ وصاحبه يرجو مغفرة الله.
- رجاء كاذب مذموم:
  - رجاءٌ بلا سبب يترك صاحبه العمل ويُفْرِطُ في الوقوع في المناهي ومع ذلك يرجو الرحمة والمغفرة.

في مقامات الرّجاء

1. مقام أوّل: رجاء الثواب.
2. مقام ثانٍ: رجاء تحصيل المقصود والفوز بما عند الله.
3. مقام ثالث: رجاء لقاء الله، وهو أفضلها وأرفعها فهو يقود إلى ترك الدنيا والزّهد فيها.

في مواطن الرّجاء

- الرّجاء لابدّ أن يتعلّق بالأعمال الحاضرة والماضية.

⬅ فصاحبه يرجو أن تُتقبّل أعماله الحاضرة والماضية.

- الرّجاء يشمل الأمور الدنيويّة.

⬅ فصاحبه يرجو الحلال في دنياه، وهو يقود إلى التعلّق بالله عزّ وجلّ في دقائق رزقه وأمور دنياه.

- رجاء العارفين مستمرّ إلى ما بعد الموت.

⬅ فرجاء المؤمن الصالح لا ينقطع، أليس إذا سار إلى قبره ورأى النّعيم قال: "ربّ أقم السّاعة"، فهو يرجو المزيد والزيادة، نسأل الله كرم الوفادة.

في تحصيل الرّجاء

وتحصيله في أمريْن:

- الاعتبار:

⬅ وذلك بالنّظر في كون الله الفسيح ولطائفه التي وضعها الله فيه، وكيف هيّأ الله فيه رغد العيش لعباده ورعاهم بدقائق مصالحهم، هذا في الدنيا، فكيف بالآخرة، فإنّ من لطف في الدنيا لطف في الآخرة.

➢ الأخبار:

⬅ وذلك بالتأمّل في نصوص الوحيين التي تزيد في الارتياح إلى رحمة الله الواسعة، ومن ذلك:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزّمر50].
- جاء عند أحمد في المسند بسند حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنّ إبليس قال لربّه عزّ وجلّ: بعزّتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال عزّ وجلّ: فبعزّتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني."

الرّجاء الحسن لا يخيب معه أملٌ

قال ابن القيّم رحمه الله: "وكلّما كان العبد حسن الظنّ بالله، حسن الرّجاء به، صادق التوكّل عليه: فإنّ الله لا يُخيّب أمله فيه ألبتّة، فإنّه سبحانه لا يُخيّب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل."

قال عليه الصلاة والسلام: "يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي فليظُنَّ بي ما شاء." [صحيح ابن حبّان].

ورحم الله الشافعي إذْ يقول:

ولمّا قسا قلبي وضاقت مذاهبه   جعلت الـرَّجـا منِّي لعفوك سُلَّما
تـعاظمني ذنبي فـلـمَّا قـرنـتـه   بعفوك ربِّي صار عفوُك أعظما

//

عبرة تربويّة من سورة البيّنة

قال الشيخ محمد الجيلاني بن أحمد حمزة رحمه الله: "تُرشدك هذه السورة إلى: ما أعدّه الله للمؤمنين والمخلِصين في إيمانهم..." [السعادة الأبديّة 96]

الإخلاص مقام عظيم من مقامات السالكين

قال الإمام ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين: "النّاس كلّهم هلكى إلاّ العالمون، والعالمون كلّهم هلكى إلاّ العاملون، والعاملون كلّهم هلكى إلاّ المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم."

ومكمن الخطر ههنا في أنّ:

- ✓ العمل بغير نيّة عناءٌ.
- ✓ والنيّة بغير إخلاص رياءٌ.
- ✓ والإخلاص من غير تحقيق هباءٌ.

وعليه فوظيفة السّالك أن يُقيم نفسه على طريق الإخلاص، وذلك بفهم حقيقته:

قال ابن قدامة: "فالوظيفة الأولى على كلّ عبد أراد طاعة الله تعالى أن يعلم النيّة أوّلا، لتحصُلَ له المعرفة، ثمّ يصحّحها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللّذين هما وسيلتان للعبد إلى النّجاة."

حقيقة الإخلاص

الإخلاص من فعل أخلص يُخلص إخلاصا إذا أمحض الشّيء وجعله محضا لم يَخْلُط معه غيره.

واصطلاحا يعرّفونه:

- قال ابن القيّم: "الإخلاص إفراد الحقّ سبحانه بالقصد في الطّاعة."
- وقيل: "الإخلاص تصفية الإعمال من الكدورات."
- وقيل: "الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظّاهر والباطن."
- وقيل: "الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدا إلاّ الله، ولا مُجازيا سواه."

والحاصل أنّ الإخلاص تنقية العمل لله وحده سبحانه وتعالى.

ويفرّقون بين النيّة والصدق والإخلاص:

- ✓ فالنيّة: القصد وهي شاملة فقد تكون لله وقد تكون غيره، وتُطلق ويُراد بها الإخلاص.
- ✓ الصدق: يكون قبل الدّخول في العمل.
- ✓ الإخلاص: يكون بعد الدّخول في العمل.

مكمن الإخلاص في تصحيح النيّة

سرُّ الإخلاص في تصحيح النيّة وتحسينها، والنيّة معنى رقيق لابدّ من فهمه:

قال ابن قدامة: "واعلم أنّ النيّة انبعاث النّفس وميلها إلى ما ظهر لها أنّه مصلحة لها إمّا في الحال أو المآل...، وإنّما النيّة انبعاث القلب، وتجري مجرى الفتوح من الله، وليست النيّة داخلة تحت الاختيار، فقد تتيسّر في بعض الأوقات، وقد تتعذّر، وإنّما تتيسّر في الغالب لمن قلبه يميل إلى الدّين دون الدنيا."

والباعث على نيّة في العمل على ثلاثة أقسام:

- الباعث على العمل الخوف من الله.
- الباعث على العمل الرّجاء.
- الباعث على العمل جلال الله تعالى لاستحقاقه الطّاعة والعبوديّة، وهذا أرقى المقامات وأزكاها.

معالجة الإخلاص

قيل لأحد السلف: "أيّ شيء أشدّ على النّفس؟ قال: الإخلاص، إذْ ليس لها فيه نصيب."

ولذلك لابدّ من معالجة النّفس وتذكيرها بالإخلاص وإقامتها عليه، فإنّه قلّ أن يخلو عمل من شوائب.

قال ابن قدامة: "والإنسان قلّما ينفكّ فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور (الشوائب)، ولذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا..."

حالهم مع الإخلاص

- ➢ قال يحي بن أبي كثير: "تعلّموا النيّة فإنّها أبلغ من العمل."
- ➢ قال معروف الكرخي: "يا نفس أخلصي تتخلّصي."
- ➢ قال أحد السلف: "طوبى لمن صحّت له خطوة واحدة لا يريد بها إلاّ الله تعالى."
- ➢ قال الإمام ابن أبي جمرة: "وددت لو أنّه كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلّم النّاس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيّات ليس إلاّ."

علامات الإخلاص

- ✓ احتساب الأجر على الله.
- ✓ الفرار من الشّكر وطلب المدائح والثّناء.
- ✓ مداومة العمل.
- ✓ الصبر والاحتساب وتحمّل الأذى في العمل.

- ✓ إتقان العمل في حاليْ السرّ والعلن.
- ✓ أن يكون عمل السرّ أكبر من عمل العلانيّة.
- ✓ الحرص على إخفاء العمل.

شوائب الإخلاص

- ➢ الرياء.
- ➢ حظوظ النّفس.

وهذه الشوائب قد تتلبّس بالعمل ولها صور ثلاث:

- الصورة الأولى: أن يكون العمل لله وحده وتنتفي الشوائب: فالعمل لصاحبه وله الثواب.
- الصورة الثانية: أن يكون العمل رياءً: فالعمل مردود ولصاحبه العقاب.
- الصورة الثالثة: أن يصدر العمل مشوبا بالرّياء وحظوظ النّفس، وهو على ثلاثة أحوال:
  - ✓ أن يكون الباعث الديني مساويا للباعث النّفساني: سقطا جميعا وصار العمل لا له ولا عليه.
  - ✓ أن يكون الباعث النّفساني أقوى من الدّيني: كان له العقاب ولكن ليس كعقاب من تجرّد للرياء.
  - ✓ أن يكون الباعث الدّيني أقوى: فله الأجر بقدر النيّة.

ثمرات الإخلاص

- ❖ التخلّص من مكائد الشيطان ووساوسه:

قال معروف الكرخي: "يا نفس أخلصي تتخلّصي."

قال أبو سليمان الدّاراني: "إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرّياء."

- ❖ المخلص يُرزق الحكمة والصّواب:

قال مكحول: "ما أخلص عبدٌ قطّ أربعين يوما إلاّ ظهرت ينابيع الحكمة على قلبه ولسانه."

//

عبرة تربويّة من حديث نبويٍّ شريف

قال الشيخ محمد الجيلاني بن أحمد حمزة الزيتوني التونسي رحمه الله:

الحثّ على القناعة

"**قال رسول الله ﷺ: "أدِّ ما افترض الله عليك تكن من أعبد النّاس، واجتنب ما حرّم الله عليك تكن من أورع النّاس، وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى النّاس"** (رواه أحمد والترمذي) [كتاب السعادة الأبديّة ص138]

موضوع الحديث

يُرشد هذا الحديث الشريف إلى ركائز الزهد الثلاث:

- ✓ التقوى: وفيها الانصراف عن الغفلة.
- ✓ الورع: وفيه الانصراف عن الشبهة.
- ✓ القناعة: وفيها الانصراف عن الشهوة.

مقام التقوى

❖ **حقيقة التقوى:**

التّقوى من اتّقى الشيء إذا جعل بينه وبين الشيء حاجزا.

قال ابن القيّم: "وأمّا التقوى فتحقيقها العمل بطاعة الله إيمانا واحتسابا، أمرا ونهيا، فيفعل ما أمر الله إيمانا بالآمر وتصديقا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانا بالنّاهي وخوفا من وعيده."

قال ابن كثير: "التقوى اسم جامع لفعل الطّاعات وترك المنكرات."

قال أبو السّعود: "التقوى: كمال التوقّي عمّا يضرّه في الآخرة."

سأل عمر أُبيّ بن كعب عن التقوى فقال: هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال: نعم، فقال: ما عملت فيه؟ قال: تشمّرت وحذرت، قال: فذاك التقوى.

قال ابن المعزّ:

خـــلِّ الذنوب صغيرها ... وكبيرهـــا ذاك التقوى

واصنع كماشٍ فوق أرضِ ... الشّوك يحذر مـــا يرى

لا تـحـــقـــرنّ صغيرة ... إنّ الجبال من الحصى

❖ **مراتب التقوى:**

- ✓ اتقاء ما يوجب الخلود في النّار.
- ✓ اتّقاء ما يكون سببا في العذاب ولو لبُرهة.
- ✓ اتّقاء كلّ ما يمكن أن يُبعد عن الله (وهذا أرفع المراتب).

❖ **حالهم مع التّقوى:**

قال أبو الدرداء: تمام التقوى أن يتقيَ اللهَ العبدُ حتّى في مثقال الذرّة، حتّى يترك ما يرى أنّه حلال خشية أن يكون حراما."

قال الحسن: "ما زالت التّقوى بالمتّقين حتّى تركوا كثيرا من الحلال مخافة الحرام."

❖ **السرّ في دوام التّقوى:**

التقوى تجارة العبد ورأس ماله، وسرُّ المداومة عليها تعاهُدُ النّفس بستّة أمورٍ:

- ✓ المشارطة.
- ✓ المراقبة.
- ✓ المحاسبة.
- ✓ المعاقبة.
- ✓ المجاهدة.
- ✓ المعاتبة.

قال ابن قدامة: "...فلمّا علموا أنّهم لا يُنجيهم إلاّ الطّاعة وقد أمرهم الله بالصبر والمرابطة فقال: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [آل عمران 200] فرابطوا أنفسهم أوّلا بالمشارطة، ثمّ بالمراقبة، ثمّ بالمحاسبة، ثمّ بالمعاقبة، ثمّ بالمجاهدة، ثمّ بالمعاتبة..."

1. **المُشارطة:**

أن يُوظّف على نفسه الوظائف، ويشترط عليها الشّروط، يُرشدها إلى ما يُنجيها.

2. **المراقبة:**

أن يراقب ما اشترط عليها من شروط.

3. المحاسبة:

أن يُحاسبها ويُطالبها بالوفاء بما شَرَطَ عليها.

قال ابن قدامة يُفصّل القول في المشارطة والمراقبة والمحاسبة: "اعلم أنّ التاجر كما يستعين بشريكه في التّجارة لطلب الرّزق، يُشارطه ويُحاسبه، كذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النّفس، ويوظّف عليها الوظائف، ويشترط عليها الشّروط، ويُرشدها إلى طريق الفلاح، ثمّ لا يغفل عن مراقبتها، فإنّه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال، ثمّ بعد الفراغ ينبغي أن يُحاسبها ويُطالبها بالوفاء بما شَرَطَ عليها، فإنّ هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى."

4. المعاقبة:

إذا حاسب نفسه ورأى منها تقصيرا فلا بدّ من معاقبتها العقاب المباح.

قال ابن قدامة: "اعلم أنّ المريد إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيرا، أو فعلت شيئا من المعاصي فلا ينبغي أن يُمهلها، فإنّه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب، ويعسُرُ عليه فطامها، بل ينبغي أن يُعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده."

5. المجاهدة:

إذا حاسب العبد نفسه ورآها قصّرت عاقبها، فإن رأى منها تكاسلا في طلب الفضائل جاهدها بكثرة الأوراد والنّوافل والسّنن.

قال ابن المبارك: "إنّ الصّالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوا، وإنّ أنفسنا لا تواتينا إلاّ كرها."

6. المعاتبة:

أن يُداوم على معاتبتها وتوبيخها حتّى لا تشرد منه إلى المعصية وترك العمل والتّكاسل فيه.

قال ابن قدامة: "واعلم أنّ أعدى عدوٍّ لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلقت أمّارة بالسوء، ميّالةً إلى الشرّ، وقد أُمرتَ بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربّها، فإن أهملتها جَمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمتها بالتّوبيخ رجونا أن تصير مطمئنّة، فلا تغفلنّ عن تذكيرها..."

مقام الورع

❖ حقيقة الورع:

الورع لغة بمعنى التحرّج.

والورع في لسان العرب: الكفّ عن الحرام، ثمّ استُعير للكفّ عن المباح والحلال.

قال القاضي عياض: "الورع اجتناب المحارم."

قال ابن القيّم: "الورع ترك ما يُخشى شرره في الآخرة."

قال الجرجاني: "الورع اجتناب الشّبهات خوفا من الوقوع في المحرّمات."

❖ أهميّة الورع:

قال أحد السّلف: الورع عماد الدّين."

قال أحد السّلف: "أصل الدّن الورع."

قال الإمام المحاسبي: "أصل الطّاعة الورع."

قال الإمام طاووس: "مثل الإيمان كشجرة، فأصلها الشهادة، وساقها وورقها كذا، وثمرها الورع، ولا خير في شجرة لا ثمر لها، ولا خير في إنسان لا ورع له."

❖ درجات الورع:

قال الإمام ابن قدامة: "والتّحقيق أن الورع له أوّل وغاية، وبينهما درجات في الاحتياط، فكلّما كان الإنسان أشدّ تشديدا، كان أسرع جوازا على الصّراط، وأخفّ ظهرا، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت درجات النّار في حقّ الظلمة بحسب درجات الحرام، فإن شئت فزد في الاحتياط، وإن شئت فترخّص، فلنفسك تحتاط وعليها تترخّص."

الورع له أربع درجات:

- ✓ درجة العدول: وهو الورع عن الحرام.
- ✓ درجة الورع عن كلّ شبهة لا يجب اجتنابها ولكن يُستحبّ.
- ✓ درجة الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع في الحرام.
- ✓ درجة الصدّيقين وهو الورع عن كلّ ما ليس لله تعالى.

❖ تحصيل الورع:

في معرفة الحلال والحرام واشتبه بهما:

وهذا جاء مفصّلا في حديث النّعمان بن بشير: **"الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من النّاس، فمن اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالرّاعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه..."**

- ➢ الحلال المطلق: وهذا لا ورع فيه.
- ➢ الحرام المحض: وفيه ورع العدول.
- ➢ المشتبهات: والشبهة: "ما تعارض فيه اعتقادان صدرا عن سببيْن مُقْتَضِيَيْنِ للاعتقاديْن"، فإن صدر عن سبب لا يقتضي أحد الاعتقادين ولا دليل على احتمالهما فهو من قبيل الوسوسة، والورع فيها أحوط للدّين.

❖ أنواع الشبهة وأقسامها:

الشبهة في علاقتها بالحلال والحرام على قسمين، وكلّ قسم هو بدوره على أنواع:

- القسم الأوّل: الشكّ في السبب المُحلِّل أو المُحرِّم، وهو على أربعة أنواع:
  - ✓ النوع الأوّل: أن يكون الحِلُّ معلوما من قبل، ثمّ يقع الشكّ في المُحَلِّل، فهذه شبهة يجب اجتنابها، ويَحْرُمُ الإقدام عليها، مثاله: أن يرى صيدا فيجرحه فيقع في الماء، فيصادفه ميّتا، ولا يدري هل مات بالغرق أو بالجرح؟ فهذا حرام لأنّ الأصل التّحريم.
  - ✓ النوّع الثّاني: أن يعرف الحِلَّ ويشكّ في المُحَرِّم، فيكون الأصل الحلّ، والحكم له، مثاله: كما لو طار طائرٌ، فقال رجل: إن كان هذا غرابا فامرأته طالقٌ، وقال الآخر: وإن لم يكن غرابا فامرأته طالقٌ، ثمّ التبس الأمر، فإنّه لا يُقضى بالتّحريم في وادة منهما.
  - ✓ النوّع الثالث: أن يكون الأصل التّحريم، ولكن طرأ ما يُوجب التّحليل بظنّ غالب فهو مشكوك فيه، والغالب حلُّهُ، ومثاله: أن يرمي إلى الصيد فيغيب عنه، ثمّ يُدركه ميّتا وليس عليه سوى أثر سهمه، فالظاهر فيه الحلُّ.
  - ✓ النّوع الرّابع: أن يكون الحِلُّ معلوما، ولكن يغلب على الظنّ طرآنُ المُحرِّم بسبب معتبر في غلبة الظنّ شرعا، مثاله: أن يضع ماءً في إناء ثمّ تظهر له نجاسة على الإناء فيحرم شربه ويُمنع استعماله في عبادة.
- القسم الثّاني: أن يختلط الحلال بالحلال ويشتبه الأمر فيه، وهو على ثلاثة أنواع:
  - ✓ النّوع الأوّل: أن يختلط حلال محصور بحرام محصور، كأن تختلط ميّتة بمُذكّاة، بعشرة مذكيات ونحو ذلك، فهذه شبهة يجب اجتنابها (لأنّه لا توجد مشقّة في تمييزها).
  - ✓ النّوع الثّاني: أن يختلط حرام محصور بحلال غير محصور، كمن رضعت معه امرأة فهي أخته من الرّضاعة واختلطت بنسوة بلد كبير، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد.

- ✓ النّوع الثالث: أن يختلط حرام لا يُحصر بحلال لا يُحصر، كحكم الأموال في زماننا هذا، لا يَحْرُمُ بهذا تناول شيء بعينه، إلاّ أن يقترن بتلك العين علامة تدلّ على أنّه من الحرام.

مقام القناعة

❖ حقيقة القناعة:

القناعة لغة الرّضى، قنع بالشيء إذا رضي به.

والقناعة الرّضى بما قسم الله.

عرّفها العلماء: "ترك الرّغبة فيما لا ينفع في الدّار الآخرة، وهو فُضول المباح التي لا يُستعان بها على طاعة الله عزّ وجلّ."

❖ مراتب القناعة:

جعلها الإمام الماوردي على ثلاث مراتب:

- ✓ أن يقتنع بالبُلْغة من دنياه (ما يسدّ به حاجته) ويصرف نفسه عن التعرّض لما سواه. قال مالك ابن دينار : "أزهد النّاس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بُلْغته".
- ✓ أن يقنع بالكفاية ويحذف الفضول والزيادة، قال أهل السّلوك: "من رضي بالمقدور قنع بالميسور".
- ✓ أن يقنع بما سنح (أي توفّر) فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيرا (أي إن جاءه شيءٌ بعد الكفاية فلا يكرهه)، ولا يطلب ما تعذّر وإن كان يسيرا، وهذه أدنى مراتب القناعة.

❖ تحصيل القناعة:

تحصيل القناعة بعد الإيمان بالله رازقا وصرف النّفس عن ملذّات الدنيا وتحصينها بالعلم ومصاحبة الأخيار من العارفين والزهّاد، في العمل بقوله صلّى الله عليه وسلّم:

"انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم".

وأنت تخالط النّاس فعليك بنظريْن:

- ✓ نظرٌ أخرويٌّ: وهو أن تنظر إلى من هو فوقك علما وعبادة فتُنَافِس وتجهد، وإيّاك والنّظر إلى من هو أسفل منك فتسقط في التسويف والتمنّي.
- ✓ نظرٌ دنياويٌّ: وهو أن تنظر إلى من هو أسفل منك رزقا وعرضا من أعراض الدنيا فتحمد الله على ما أنت فيهم من نِعم، وإيّاك والنّظر إلى من هو فوقك فتمرض وتظلم وتتعدّى حدود الله، بأن تسيء الأدب مع خالقك ومولاك ويصدر منك ما لا يليق انتقاصا لنعِم الله عليك.

قال الشّاعر:

من رام عيشا رغيدا يستفيد به   في دينه ثــمّ في دنياه إقبالاَ
فلينظُرَنْ إلى من فوقه أدبـــا   ولينظُرَنْ إلى من تحته مالاَ